مجلة الرائد

العدد : ١٩٣ الموافق في جمادى الأولى ١٤١٨ هجري ١٩٩٧/١٠ ميلادي

حـــديث في البنـــاء : شخصية المسلم بين العقل والعاطفة (٢)	بقلم : محمد العبدة

نشر الجزء الأول من هذا الموضوع القيم في العدد ١٩١ من الرائد ، ونعتذر إلى الإخوة القراء وإلى الأستاذ محمد العبدة عن تآخير نشر هذا الجزء في العدد ١٩٢ .

خامساً : ومن الموانع التي تعيق استخدام القدرات العقلية ما ابتلي به المسلمون في العصور المتأخرة من طرق التعليم التي تركز على السرد والحفظ والتلقين ، وتتجنب الحوار والمناقشة والاستنباط والتعليل ، فنتج عن ذلك نمو ذاكرة الحفظ ، وضعف التفكير العميق ، وأصبح من السهل على المسلم أن يخطب ، ولكن من الصعوبة عليه أن يناقش أو يتعمق في المسائل . وقد كانت طرق التعليم في العصور الأولى تتبع طريقة الحفظ والفهم كما قال الإمام عبد الله ابن المبارك : " أول العلم النية ، ثم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم الجدل ، ثم النشر " وعلى هذه الطريقة تخرج أمثال أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني في حلقة أبي حنيفة رحمه الله. ولا يعني هذا التقليل من ملكة الحفظ ، ولكننا نتحدث عن التوازن ، فالخطاب الإسلامي ما يزال في عمومه خطاباً عاطفياً ، استطاع أن يجمع الناس على القبول بالمشروع الإسلامي ، ولكنه لم يستطع إنشاء مؤسسات علمية ، وصياغة مشروع علمي عملي.

منهج القرآن الكريم :

جاء القرآن بالأدلة السمعية والعقلية ، ليتربى المسلم ويتعلم طرق الفهم في دين الله ، وهذه الأدلة كلها شرعية ، فلا يقال : هذا دليل عقلي ، وكأنه يقابل أو يضاد الدليل الشرعي ، فلا يقابل الشرعي إلا البدعي وأما الشرعي فإما أن يكون سمعياً معلوماً بالعقل ، أو عقلياً أتى به الشرع ، فالأول مثل إخبار الله سبحانه عن الغيب ، وقصص الأنبياء السابقين ، ومقدار العبادات وكيفيتها ، وأما الأدلة العقلية التي أتى بها الشرع فهي الأقيسة العقلية والأمثال المضروبة ، وأكتفي هنا بنموذج منها : قال تعالى : { **ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون** } [الروم : ٢٨] ، أي: يا أيها الناس ، إذا كان لكم عبيد تملكونهم ، فإنكم لا تشركونهم في أموالكم ، ولا في أموركم ، وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا

أموالكم ، أو يقاسموكم حياتكم كما يفعل بعضكم مع بعض ، فإذا كان هذا فيكم ، فكيف تقولون : إن من عبيده سبحانه وتعالى شركاء له في سلطانه وألوهيته ، وتثبتون في جانبه ما لا يليق عندكم في جانبكم "[1] وهذا يسمى قياس الأولى ، وهو كثير في القرآن الكريم ، يقول الشيخ الشنقيطي : "وحكمة ضرب الأمثال في القرآن أن يتفكر الناس ، فيفهموا الشيء ونظيره { **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** } .

وكذلك كان رسول الله ﷺ في مخاطباته ، لما قال : " ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه ، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر " قال أبو رزين العقيلي : كيف يا رسول الله ، وهو واحد ونحن كثير ؟ قال : " سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله، هذا القمر آية من آيات الله ، كلكم يراه مخلياً به ، فالله أعظم " . وكذلك السلف ، فروي عن ابن عباس أنه لما أخبر بالرؤية ، أي رؤية الله سبحانه في الدار الآخرة ، عارضه السائل بقوله تعلى { **لا تدركه الأبصار** } فقال له : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى ، قال : أتراها كلها ؟ قال : لا ، فبين له أن نفي الإدراك لا يقتضي نفي الرؤية .

بعض وسائل تنمية القدرات العقلية :

إن في القرآن إشارات وتوجيهات واضحة للنظر في الكون وعظمته وعجائبه ، وآثار قدرة الله فيه ، كما أن فيه توجيهات للسير في الأرض والنظر في آثار السابقين ، وتطور الحضارات والمجتمعات ، وما هي السنن التي حكمت هذه المجتمعات ، ومقارنة ذلك بواقع المسلمين ومعرفة سنن الله في تقدمها وتأخرها وقوتها وضعفها...

وسنته : عادته سبحانه التي يسوي بها بين الشيء ونظيره ، ولهذا قال { **أكفاركم خير من أولئكم** } ، وقال : { **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** } أي أشباههم[2] ومن هذه السنن :

١- **سنة الأجل** ، فكل شيء له أجل معلوم { **لكل أجل كتاب** } ، واستعجال الأمور قبل أوانها يؤدي إلى الويلات والمصائب ، وأعداء الإسلام يستدرجون العمل الإسلامي لضربه قبل أن يشتد عوده ، وتمتد جذوره .

٢- **سنة التداول** : { **وتلك الأيام نداولها بين الناس** } وإذا كان المسلمون اليوم بعيدين عن دائرة الحضور والشهود ، فإن هذا لا يعني بقاءهم على مثل هذه الحالة ، فالأحاديث المبشرة كثيرة . " لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام ، بعز عزيز أو بذل ذليل " فهذه الأمة كما قال أحد الدعاة : تمرض ولا تموت.

٣- ومن سننه سبحانه وتالى في المجرمين الظالمين المتكبرين الذين اختاروا نهائياً أن يكونوا ضد الشرع ، فإنه لا يقتصر على عدم هدايتهم ، بل إنه يبقي على ضلالهم ويزيده { **ويضل الله الظالمين** } ويقسي قلوبهم { **وجعلنا قلوبهم قاسية** } ويصمهم ويعميهم ، ويطيل زمن ضلالهم { **ويمدهم في طغيانهم** } ويقابل ذلك سننه في الذين استجابوا للفطرة ، فإنه يمنحهم القدرة على تمييز الحق من الباطل { **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** }.

ومن العوامل التي تساعد على تنمية القدرات العقلية ، تعويد المسلم على منهج التفكير السليم ، وأن يتبع الخطوات الصحيحة في ذلك وأن يستخدم أجهزة التلقي كلها : السمع والبصر والفؤاد ، ولا يقتصر على السماع الظاهري ، بل لا بد من إدخال المعلومة إلى الفؤاد والوعي بها وتدبرها { **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** } [الإسراء:٣٦]. وتدريب المسلم على مواجهة أخطائه وتحمل المسؤولية ، حتى لا يقع في التفكير التبريري الذي يبحث صاحبه عن مبررات خارجية ، وينسب الأخطاء إلى غيره . وقد ذكر القرآن الكريم قصة آدم عليه السلام وكيف اعترف واستغفر : { **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** } بينما ينكر على إبليس أنه نسب الغواية لله { **ربي بما أغويتني** } فمنهج التبرير منهج إبليس[٣] وتدريب المسلم على التفكير العلمي بدل اتباع الظن والهوى : { **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** } وفي الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ».

الجانب الآخر من شخصية الإنسان :

هذا الذي تحدثنا عنه يمثل جانباً من شخصية الإنسان ، وقد ينمو الجانب الفكري والعقلي ، ولكن هذا لا يحل المشكلة عند المسلم ، فالجانب الآخر وهو العمل لا بد له من إرادة ، والإرادة محلها القلب ، الذي هو سيد الأعضاء « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » فالإرادة هي التي تدفع للعمل والإيمان القوي هو الذي يدفع للعمل ، بل إن الإيمان يساعد العقل على التفكير السليم ، والعاطفة الصادقة هي التي تنقذ الإنسان من البلادة والخمول ، ونحن نلاحظ أن كثيراً ممن يتمتعون بعقول راجحة يقعون في الكذب والهوى والنفاق ، فهناك إلى جانب الملكات العقلية العاطفة والانفعالات الشعورية وغير الشعورية فمن يلجم هذه الشهوات ، إنها الإرادة النابعة من القلب. يقول علماء الاجتماع : " إذا نجحت فكرة ما في إحداث تغيير في سلوك البشر فلأنها تنطوي على عناصر عاطفية إلى جانب العناصر المنطقية " ولم يقو المنطق وحده في يوم من الأيام

على تقويض حصون الجهل .

كان زعماء المعتزلة من هذا النمط من الناس الذين يعيشون على الكلام والجدل وعلى الفكر المحض ، فأصبحت قلوبهم قاسية ، فلم يعيشوا هموم الناس ، ولا تلقفوا راية للجهاد ، وانحصروا في متعة الفكر النظري ، فتلاشوا بسرعة ، وإن كانت بعض أفكارهم ما تزال تعيش بيننا ، ونحن نرى اليوم من يسمون أنفسهم بالمفكرين أبعد الناس عن الالتزام بالأخلاق الإسلامية أو الالتزام بالمبدأ الذي يعلنه ، فما أن تسنح له الفرصة حتى يتحول عما يدعو له .

إن التربية الصحيحة هي التي توازن بين العقل والعاطفة وتقرب بينهما ، فالعاطفة الصادقة هي التي تصل الإنسان بمصدر القوة الحقيقي ، وهي التي ترفع روحه المعنوية وتؤثر في جسمه تأثير النجار في العجلة المحركة ، وإذا أردنا أن نتغلب على الصعاب التي تعترضنا ، فإن الإيمان الذي ينبثق من أعماق نفوسنا هو الذي يفعل ذلك .

الهوامش :

(١) تفسير ابن عطية ، ج١١/ص ٤٥١

(٢) ابن تيمية : الفتاوى ج١٣/ص ٢٣

(٣) انظر : مقومات الشخصية المسلمة ، د. ماجد عرسان الكيلاني ، ص ٥٧